بسم الله الرحمن الرحيم

[تفريغ المجلس ٠٥]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا- أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كنا انتهينا في آخر مجلس من هذه المجالس عند شرح حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي قال فيه (**بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم)**) الحديث، وهو الحديث الثاني الذي ذكره الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتاب الأربعين، كما أننا أشرنا إلى أنه أول حديث ذكره الإمام مسلم، في صحيحه رحمة الله تعالى على الجميع، وذكرنا شيئا مختصرا مما يتعلق به، من بدايته ومن الإشارة إلى أركان الإسلام ألا وهي الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ثم ذكرنا الإيمان وأركانه، وأشرنا إلى التفريق بين الإسلام والإيمان، وكلام أهل العلم في ذلك، وتكلمنا على أركان الإيمان، وأولها الإيمان بالله جل وعلا، ويتضمن الإيمان بوجوده جل وعلا، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، وأسمائه وصفاته، وذكرنا أصل أهل السنة والجماعة في الباب هذا، ثم ذكرنا باختصار ما يتعلق بالإيمان بالملائكة، ثم ذكرنا أيضا الإيمان بالكتب، ثم الرسل، ثم القدر خيره وشره، وتوقفنا عند هذا، عند الكلام على القضاء والقدر، وذكرنا ما ذكره أهل العلم من التفريق، بين القضاء والقدر، وقلنا إن القضاء هو ما سبق في علم الله جل وعلا، والقدر هو تنزيل الأمر على ما سبق في علم الله تبارك وتعالى، وذكرنا كلام الشافعي في تعريف القدر لمّا سئل عنه، وماذا قال فيه، ثم انتهينا عند ذكر أركان القدر الأربعة، وهي: العلم، والكتابة، والخلق، والمشيئة، هذا ذكرناه وفصّلناه وذكرنا أدلته، فنكون بذلك قد انتهينا باختصار حول ما يتعلق بركن الإيمان بالقدر، وهذا الركن أمره عظيم، إذ لا يسلم إيمان العبد إلا

بإيمانه بالقدر، كما قال ابن عمر رضي الله تعالى عن الجميع، وهو نظام التوحيد كما جاء في الأثر المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عن الجميع.

وأشرنا أيضا إلى ما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر وما يتضمنه من المسائل التي يذكرها أهل العلم، وإن كان ذلك بشيء من الاختصار كذلك، فقال في الإيمان **(أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).**

[الإحسان]

ثم قال **(فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ)** السؤال عن الإحسان، قال **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك)**، هذه حقيقة الإحسان، فهي مرتبة أعلى من مرتبة الإيمان، كما أن الإيمان مرتبة أعلى من مرتبة الإسلام.

والإحسان مأخوذ من أحسن يُحسن إحسانا، وأحسنَ أصله من فعل حسَنَ، وحسن الشيء بهاؤه وجماله وصحته وصوابه، فأحسن أي: فعل الفعل الحسن، وعرفه هنا بتعريف شرعي، والإحسان جاء في كتاب الله جل وعلا مقرونا بالإيمان، ومقرونا بالتقوى، ومقرونا بالإسلام، قال جل وعلا ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ۗ﴾المائدة٩٣، فقرن الإحسان هنا بالتقوى، والتقوى كما ذكرنا هنا جاءت مطلقة، {**ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا**}، لكن ترد التقوى في كتاب الله جل وعلا مضافة إلى الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ الأحزاب٧٠، ومعنى ذلك أن تخاف الله تبارك وتعالى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، والأوامر سواء ما كان منها على سبيل اللزوم، أو على سبيل الاستحباب، وأن النهي ماكان على سبيل التحريم، أو سبيل الكراهة.

وقد تُضاف التقوى إلى مكان العذاب ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾آل عمران١٣١، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾البقرة٢٤، اتقوها أي اجعلوا بينكم وبينها حاجبا وحاجزا ومانعا يمنعكم منها، والمانع من النار هو العمل الصالح.

وتُضاف إلى الزمان ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾البقرة١٨١، أي خافوا ذاك اليوم، وذلك بأن تتزودوا له بالعمل الصالح، لأنه قال جل وعلا ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾البقرة١٩٧، فالتقوى هذا معنا

ولإحسان هو بلوغ الغاية في هذه التقوى، فقد يكون هاهنا في {ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا} من باب عطف الخاص على العام، فيكون الإحسان يعني التقوى في أعلى درجاتها.

وقُرن الإحسان بالإيمان وبالإسلام، كما قال جل وعلا ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾لقمان٢٢، وقال جل وعلا﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾البقرة١١٢، فقرن الإحسان بالإسلام.

كما قرن أيضا بالإيمان في الآية السابقة، وبالتقوى أيضا كما في الآية السابقة وقوله تعالى﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ العنكبوت٦٩، كذلك في آخر سورة النحل {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}النحل١٢٨، ففيه الجمع بين التقوى والإحسان كذلك.

فهذا الإحسان قد جاء ذكره في كتاب الله جل وعلا، وقُرن بالإيمان، وقُرن بالتقوى، وقُرن بالإسلام، وقُرن بالعمل الصالح، وقرن أيضا بالعمل الصالح.

[مقاما المشاهدة والمراقبة]

وحقيقة الإحسان كما قال عليه الصلاة والسلام (**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**) يعني كأنك ترى الله جل وعلا، وهذا مقام المشاهدة، ولو أنك تعبد الله جل وعلا كأنك تشاهد الله وتراه، فإن ذلك لا شك ولا ريب يحملك أن تعمل العمل على أعلى الدرجات، في أحسن ما يكون، لأنك تعمل وأنت تستحضر مشاهدة من أمرك بهذا العمل، ولله المثل الأعلى، كما يذكر أهل العلم: لو أن الصانع لشيء ما يعلّمه معلّمه تلك الصنعة، ثم بعد أن يراه قد أتقنها يتركه، فكيف يقوم بها هذا الصانع؟ يصنعها، لكن إذا ما جاء المعلم بين يديه، وصار ينظر إليه، فتجد أن هذا الصانع يستحضر كلّ صغيرة وكبيرة علمه إياها معلّمه، حتى ولو كان ذلك الأمر الذي عُلّم إياه يمكن أن يكون بطرق كثيرة، فإنه لا يفعله إلا

بالطريقة التي علّمه إياها معلّمه، ومدرّبه، هذا في أمور الدنيا، ولله المثل الأعلى، والله تبارك وتعالى أجلّ، والله أكبر، والله أكثر، والله أعظم من كل هذا.

فلو أن الإنسان استحضر مشاهدة الله عز وجل له، وأنه يراه وأنه يشاهده فكيف يقوم بالعبادة؟ لا شك ولا ريب أنه يأتي بها على أحسن الوجوه، وأفضلها وأتمها وأكملها، فلا يترك منها شيئا، إلا وأتى به لأنه يستشعر ويستحضر أن الله يراه ويشاهد، ولهذا كانت هذه المرتبة من أعلى المراتب، وقدمها النبي صلى الله عليه وسلم (**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ**).

(**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك**) ولا شك أن المرتبة الأولى وهي مرتبة المشاهدة العبد فيها يكون مخلصا لله عز وجل، لا يلتفت إلى الناس وإلى الخلق، لأنه يستشعر مشاهدة الله جل وعلا له، يستحضرها، يعني المؤمن لا يعتقد أن الله لا يراه!، لا! لا أحد يظن أن الله عز وجل لا يطلع على عمله ولا يراه! ليس هذا المقصود، لكن استحضار ذلك أثناء العبادة، أثناء معاملاته في دنياه، سواء كانت المعاملات المالية، دينية أو دنيوية، إذا كان يستشعر العبد مشاهدة الله عز وجل له، فإنه يتقن العمل، كما جاء في الحديث القدسي الآخر، أنه جل وعلا يقول (**يا بنَ آدم! استطعمت فلم تُطعمْني. قال: يا ربِّ! وكيف أُطعِمُك؟ وأنت ربُّ العالمين. قال: أما علمتَ أنَّه استطعمك عبدي فلانٌ فلم تُطعِمْه؟ أما علمتَ أنَّك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا بنَ آدمَ! استسقيتُك فلم تَسقِني. قال: يا ربِّ! كيف أسقِيك؟ وأنت ربُّ العالمين. قال: استسقاك عبدي فلانٌ فلم تَسقِه. أما إنَّك لو سقَيْتَه وجدتَ ذلك عندي**)[1] فلو أن العبد علم ذلك واستحضره لسارع إلى إطعام هذا العبد الذي استطعمه أو ذاك العبد الذي استكساه، أو استسقاه، فكذلك لو أنه استشعر مراقبة الله عز وجل، ومشاهدة الله تعالى له لأتقن العمل وجعله خالصا لله جل وعلا.

(**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ**) إذا كنت قد دنوت عن هذه المرتبة وهي مرتبة المشاهدة، (**فَإِنَّهُ يَرَاك**) أي استحضر أنه جل وعلا يراك، إذا لم تستطع أن تعبد الله جل وعلا وأنت تستشعر أنه يراقبك، تنظر إليه يراقبك، وهي مرتبة المشاهدة، فأقل منها مرتبة المراقبة، وهو أن تستشعر المراقبة وأن الله تعالى يراك، فالأولى أن

[1] [صحيح مسلم ٢٥٦٩]

تستشعر أن الله تعالى ينظر إليك، والثانية أن تستشعر وتستحضر أن الله تعالى ينظر إليك، فهذه هي المرتبة الأخرى.

فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه جل وعلا يراك، فاعبده بمرتبة المشاهدة، وهي استحضار كأنك تراه يراقبك، إن لم تستطع فمرتبة المراقبة، وهو أن تستحضر أن الله عز وجل يراك **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك)**، وهذه لاشك ولا ريب أنها من مراتب العبادات العظيمة، لو أن العبد استحضرها وحاول أن يبلغها، ولهذا قال بعض السلف: عجبا للإنسان قد خُلّي بينه وبين المحراب والوضوء، وهو يعرض عن ذلك، يعني ليس بينك وبين أن تتصل بالله جل وعلا إلا أن تتوضأ وتأتي إلى محرابك فتصلي، والمحراب المراد به مكان العبادة، كما قال جل وعلا ﴿فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾آل عمران٣٩، أي مكان العبادة، فهذه مرتبة عالية، ويجتهد الإنسان أن يصلها، فيعبد الله جل وعلا كأنه يراه، يعني كأنك تنظر إلى الله جل وعلا يشاهده ويراقبك.

فإن لم تستطع فاعلم أن الله يراك، وإن كان الانسان يستحضر هذا المعنى لا يمكن أن يسيء في العمل، أو أن يكون ديدنه الإساءة، والظلم والعدوان والاعتداء، لأنه مستحضر لمراقبة الله عز وجل له، فيتقن العمل ويفعل ما أمر به ويترك ما نهي عنه، وإن أخطأ بادر إلى التوبة إلى الله جلّ وعلا.

[من أمارات الساعة]

(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ)، أي هذا دليل على أن جبريل أو السائل سأل عن وقت الساعة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر ما يتعلق بالساعة، بل ذكر حتى اليوم الذي تقوم فيه الساعة، وهو يوم الجمعة، لكن متى الوقت؟ الله أعلم، لا أحد يعلم ذلك كما قال جل وعلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾لقمان٣٤، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ الأعراف١٨٧، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾النازعات٤٢-٤٦، قال جل وعلا أيضا في الآية الأخرى﴿قُلۡ إِنَّمَا

عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ الأعراف١٧٨، فالساعة لا يعلمها أحد، فلما قال **(فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ قال مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ)** دل على أن السؤال المراد الزمن، ثم لفظ السؤال يدل على ذلك (متى) ومتى ظرف زمان.

وقوله **(مَا الْمَسْئُولُ)** الألف واللام هي للعهد، وتفيد أيضا العموم، يعني كل سائل لا يعلمها كما أن المسؤول لا يعلمها، ولهذا لم يقل صلى الله عليه وسلم لما قال **(متى الساعة)** : لا أدري، وإنما قال **(مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ)**، فعلى فرض أن اللام عهدية، **(ما المسؤول)** الذي هو محمد صلى الله عليه وسلم، **(بأعلم من السائل)** الذي هو الرجل الذي جاء وهو جبريل عليه السلام، لكن أيضا يصح أن تكون اللام هاهنا للعموم للاستغراق: فكلّ مسؤول لا يعلمها كما السائل لا يعلمها، فالزمن لا يعلمه أحد، وهذا رد على الذين يدعون علم الساعة، ويزعمون أنها في وقت كذا وكذا، وهناك من الناس من طلع علينا بحسابات ويقول إن الساعة ستكون في عام كذا وعام كذا، فهذا غير صحيح، باطل.

(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا) أو قال **(عن أشراطها)**، أي: علاماتها، والساعة لها علامات كما ذكرنا في شرح أركان الإيمان، في الإيمان باليوم الآخر، قلنا لها العلامات الصغرى، والعلامات الكبرى، والصغرى منها ما وقع ولا يتكرر، ومنها ما وقع ويتكرر، ومنها ما لم يقع أصلا، والكبرى وذكرنا منها عشرا، فقال **(فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا)**، عن أشراطها، عن علامات الساعة، فذكر له النبي صلى الله عليه وسلم شيئا من علامات الساعة، وهي العلامات الصغرى.

فقال صلى الله عليه وسلم **(أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا)** أن تلد الأمَة ربّتها، وفي رواية **(ربَّها)**، قال العلماء: هذا دليل على تغير الأحوال في آخر الزمان:

١= فمن العلماء من أخذه بالمعنى، فقال: المراد أن يسوء حال أهل آخر الزمان، إلى أن يصير الولد في سوء العقوق إلى درجة أن يكون كالسيد مع أمه، أي: أن المرأة تلد فمن شدة العقوق، يصير حال ولدها معها كالسيد مع الأمَة.

٢= وقيل: بل المراد كثرة الفتوحات، وكثرة السبي، وإذا كثر السبي أي الأسرى الذين يحصل عليهم المسلمون بعد الغزوات من رجال ونساء، فيكثر هؤلاء، وتكثر النساء، فيصير للرجل السبي، وقد يطؤها فتلد له الولد ويكثر هذا فيذهب زمان ويأتي زمان، فيصير الولد سيدا لأمه.

٣= وقالوا أيضا لأن الرجل إذا وطئ الأمة فولدت له صار الولد تابعا لأبيه، والمرأة صارت أمّ ولدٍ.

٤= وقيل المعنى الآخر، وهو أن يقع من الناس المخالفة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم التفريق بين الأمّ وولدها، فيفرقون وإذا فرّقوا يصير الولد سيدا، والمرأة تكون أمة عنده فتكون هي التي ولدت سيدها، وذكروا معان أخرى قريبة من هذه فحاصلها هذان المعنيان، أن تلد الأمة ربتها، وهذا دليل على سوء أهل آخر الزمان، أن تلد الأمة ربتها.

(وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ) الأعراب الذين يعيشون في البادية، عادتهم عدم لبس الحذاء، ما يلزمه، يعني الذين صارت عادتهم المشي بدون نعل، **(وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ)** عادتهم عدم الانتعال **(الْعُرَاةَ)** الذين لا همّ لم في اللباس، يلبسون أشياء يسترون بها عوراتهم وانتهى، فليست لهم همّة أو شغل بالملابس **(الْعَالَةَ)** الفقراء **(رِعَاءَ الشَّاءِ)** رعاة الغنم، والغالب فيهم الفقر، وحالهم قدر حال أنفسهم، بخلاف حال رعاة الإبل فالغالب تجدهم أصحاب أموال.

(يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ) يبنون بنايات عالية، ويتطاولون فيها، ولفظة **(يَتَطَاوَلُونَ)** فيه إشارة إلى نوع من التفاخر، والتنافس على أمر الدنيا، وهذا من علامات الساعة وقد وُجدت، فكثير ممن حاله الحفاء والعُري والعالة، وحاله رعي الغنم، تجده الآن يتطاول في البنيان، وفي مبانٍ لربما صارت كهيئة القصور، وهذا من علامات الساعة، ولا يوجد تلازم بين علامات الساعة وكون الشيء حراما، فلا يلزم أن يكون كل ما هومن علامة الساعة حراما، ولا يلزم أن يكون كل حرام من علامات الساعة، فلا تلازم بين الأمرين، فقد يكون مما يذكر من أشراط الساعة حراما، وقد لا يكون حراما، والحرام قد يكون من علامات الساعة وقد لا يكون، فمن علامات الساعة أن يكون هذا الشأن وهو تطاول من عادته عدم الانتعال، والعراء ورعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

أما التطاول في البنيان فحكمه إن كان تفاخرا وترفّعا فلا يجوز أصلا، وأما التطاول في البنيان قدر الحاجة فذلك مشروع لا حرج فيه، وعليه يُحمل حديث النبي صلى الله عليه وسلم في ذم المال الذي يجعل في البناء، يعني الذي لغير حاجة، أما ما كان لحاجة ظاهرة فجائز، يعني إذا كان الإنسان صاحب عائلة، وله أولاد متزوجون يحتاج إلى سكن أوسع من الذي يكون له عائلة وأولاده صغار مثلا، فهذا ليس كذاك، فالزيادة في البنيان قدر الحاجة لا إشكال فيه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام وذكر منها البيت الواسع، فالزيادة فيه للحاجة لا بأس به. (**وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**) فهذا من أشراط الساعة.

(**ثُمَّ انْطَلَقَ**) أي الرجل، ولم يعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جبريل، وجاء في رواية ذكرتها سابقا قال (**لم يختلف عليّ إلا هذه المرة**)، يعني لم يكن يغب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني كان جبريل إذا جاء في صورة بشر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعرفه عليه الصلاة والسلام من فوره، وكان غالبا ما يأتي في صورة دحية الكلبي.

(**ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا**) الملي شيء من الوقت، في بعض الروايات أنها ثلاث، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بما وقع، أما عمر كان قد انطلق من المجلس كما قال بعض أهل العلم في شرحه للحديث، فلقيه بعد ثلاث فقال (**أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟**) يعني الذي جاءنا وسأل، قال (**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**) وهذه الكلمة تُقال في زمن حياة النبي صلى الله عليه وسلم، بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم نقول (**الله أعلم**)، فإن قال قائل: هذا استنقاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم!، نقول له: (**الله ورسوله أعلم**) هل الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب؟ لا يعلم، الآيات في كتاب الله جل وعلا كثيرة، قال جلّ وعلا في حق نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ الأعراف١٨٨، لو كان يعلم الغيب لمَ يذهب إلى أهل الطائف لينصروه، فيؤذوه ويرجمونه حتى كسروا ما كسروا من جسمه، وأدموا قدميه صلى الله عليه وسلم، لو كان يعلم الغيب لماذا يبقون زمنا يبحثون عن القلادة التي ضيعتها عائشة في رجوعهم من إحدى الغزوات، إذا كان يعلم الغيب لماذا لم يعلم براءة عائشة رضي الله عنها لمّا رميت في حادثة

الإفك، فقال (**إن كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله، إن كنت بريئة فسيبرّؤك الله**)[1]، والشواهد في هذا كثيرة، فنقول: الله أعلم.

والنبي صلى الله عليه وسلم نفسه قال (**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**)[2]، وقال له رجل (**ما شاء الله وشئت**)، قال (**أجعلتني لله ندا؟ قل ما شاء الله وحده**)[3] المشيئة مشيئة الله، فإن كان ولابد فقل: ما شاء الله ثم شاء فلان، والأدلة على هذا كثيرة، وأنه صلى الله عليه وسلم حمى جناب التوحيد، وحمى حِمى التوحيد كما مر معنا في شرح كتاب التوحيد.

فإذن (**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**).

(**قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**) فهذا جبريل جاء وأرسله الله جل وعلا ليعلمنا أمر الدين، (**ليعلمكم دينكم**) في رواية، وفي رواية (**ليعلمكم أمر دينكم**) فدل هذا على أن الدين يشمل المراتب الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، فالأمر دائر بين هذه الثلاث.

[فوائد منتقاة من الحديث]

وهذا الحديث عظيم كما ذكرنا في أول شرحه، فيصح أن يقال هذا أم السنة، كما أشار إلى ذلك النووي رحمه الله في شرحه عليه في صحيح مسلم، ونقله غيره كذلك، وذكره القرطبي أيضا وغيره من أهل العلم.

والحديث يستفاد فيه من الفوائد العلمية مجالسة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم وسماعه لحديثه، وأخذهم العلم عنه.

وأنه كان يأتي الرجل الغريب فيقدمونه للسؤال.

وأن العلم أيضا يحصل بالسؤال، فمن طرق تحصيل العلم السؤال.

وكذلك السؤال لا يرد من الذي يجهل فقط، بل يرد ممن لا يعرف وممن يعرف، لأن جبريل لمّا سأل النبي صلى الله عليه وسلم وأجابه قال (صدقت) صدّقه.

---

[1] [رواه الشيخان]
[2] [سبق تخريجه]
[3] [السلسلة الصحيحة ٢٦٦/١: إسناده حسن]

وأيضا يستفاد أن الإنسان يستطيع أن يعلم بأن يسأل، إذا كان هو يعلم الحكم وغيره لا يعلم، فيسأل العالمُ فيجيب، فيكون سببا لتعليم غيره.

ويستفاد من الحديث الأدب في السؤال، والأدب مع العالم في سؤاله، وفيه التأدب بين يديه في جلسته، ومعه، والجلوس بين يديه.

كما يستفاد أيضا من الحديث أيضا أن تصديق المجيب لا بأس به، إذا سأل السائل فأجاب المجيب فقال: صدقت، فذلك لا شيء فيه.

وأيضا يدل الحديث على أن الدين على ثلاثة مراتب، أعلاها الإحسان، ثم دونها الإيمان، ثم دونها الإسلام.

كما يدل الحديث على أن الإسلام يشمل الأعمال الظاهرة، والإيمان يشمل الأعمال الباطنة، لكن إذا أطلق الإسلام شمل الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا أطلق الإيمان فإنه يشمل الأعمال الظاهرة والباطنة، لكن إذا قرن الإيمان بالإسلام حمل الإسلام على الأعمال الظاهرة، والإيمان على الأعمال الباطنة، وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن، وكل محسن مؤمن وهو مسلم من باب أولى، وليس كل مؤمن محسن، ومن باب أولى ليس كل مسلم محسن، ولما يقال ليس كل مؤمن مسلم لا يعني أنه ليس معه شيء من الإيمان خطأ!، بل معه من الإيمان ما يصح به عمله، فالمسلم إذا قلنا: ليس كل مسلم مؤمن معنى ذلك أنه لا يوجد معه شيء من الإيمان إذن هو منافق!! هذا صار منافقا!، فقولنا: ليس كل مسلم مؤمن يعني ليس معه ذلك الإيمان الذي يطلق عليه لفظ المؤمن، وإنما يقال في حقه مسلم، ولهذا قال جل وعلا ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾الحجرات١٤، هذه الآية إذا حملناها على أن المراد بها المنافقون فهؤلاء ما في قلوبهم شيء من الإيمان، وإذا حملناها على حديث عهد بالإسلام فمعه شيء من الإيمان وليس بذاك، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل لما قال له: يا رسول الله مالك أعطيت فلانا ولم تعط فلانا، وإني لأراه مؤمنا قال (أو مسلم) ثم سكت عبد الله بن عمرو، فغلبه ما يجده في نفسه -كما قال: فعدت فقلت يا رسول الله ما لك وفلان، أعطيت فلانا ولم تعط فلانا وإني أراه مؤمنا، فقال صلى الله عليه وسلم (أو مسلم) ثم غلبه ما يجد في نفسه فأعاد الثالثة فقال صلى الله عليه وسلم (**أو مسلمٌ ثمَّ قالَ إنِّي لأُعطي الرَّجلَ**

وغيرُهُ أحبُّ إليّ منهُ مخافةَ أن يكُبَّهُ اللَّهُ في النّارِ)[1]، يعني أنه أحيانا يتألف قلب حديث العهد بالإسلام، لأن قلبه ليس فيه ذاك الإيمان القوي، ولربما إذا لم يعطه انقلب على عقبيه، فيدل إذن على أن ليس كل مسلم مؤمن، يعني ليس نفيا للإيمان بإطلاق، لأنه إذا لم يكن في قلبه شيء من الإيمان فإنه منافق، وإن كان أظهر الإسلام، ولكن إذا كان على الإسلام في الحقيقة فإن في قلبه شيء من الإيمان به يصلح عمله الذي قام به من أعمال الإسلام.

ويدل على أن الإسلام أركانه خمسة، ولا يعني أنه لا يوجد غيرها من واجبات الإسلام، بل يوجد الكثير من واجبات الإسلام، كبر الوالدين، وطاعتهما، وعدم عقوقهما، والصدق، والبيان في البيع، وصلة الرحم، والإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف، والكلمة الطيبة، وإفشاء السلام، ورد السلام، وغيرها من الأعمال التي هي من أعمال الإسلام، وتعدّ أيضا من الفرائض، لكن أعظم الأركان هي هذه الخمس، وبتمامها يتم إسلام العبد.

ومن الفوائد أن الإيمان أركانه ستة، وأن الإحسان أرفع مراتب الدين وهو على قسمين:

أ= مرتبة المشاهدة وهي أن تعبد الله كأنك تراه، أي كأنك تراه يراقبك.

ب= أو كأنه يراك أي تراقبه، فتستحضر المراقبة.

وأن الساعة لها علامات، قد ذكر شيئا منها، وأن حاصل هذه العلامات إسناد الأمر إلى غير أهله، أن تلد الأمة ربّتها، يصير سيدا لأمه، وأن يتطاول الحفاة العراة العالة رعاء الشاء في البنيان، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لما سأله الرجل: متى السعة؟ -كما جاء في حديث البخاري- قال **(إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)**[2]، فهذا أيضا مما يستفاد من الحديث.

وأيضا من الفوائد أن الملائكة يتشكلون في صورة البشر، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتيه جبريل على صورة بشر، وكان الغالب على صورة دحية الكلبي، وأحيانا يأتيه في صورة بشر لا يعرفه كما في هذا الحديث.

وهذا في الجملة ما يتضمنه من الفوائد والله تعالى أعلم.

---

[1] [صحيح مسلم ١٥٠]
[2] [صحيح البخاري ٥٦]